سي. أس. لويس (C. S. Lewis)

١٨٩٨-١٩٦٣م

كان كلايف ستايپلز لويس (Clive Staples Lewis)، أحدَ عمالقة الفكر في القرن العشرين، وأحدَ أكثر كُتَّاب عصره تأثيرًا. عملَ مدرِّسًا للأدب الإنكليزيِّ في جامعة أكسفورد حتَّى عام ١٩٥٤م حين اختيرَ في جامعة كامبردج بالتَّزكية لمنصب الأستاذيَّة في الأدب الإنكليزيِّ في فترتَي العصور الوسطى وعصر النهضة، وهو منصبٌ شغلَه حتَّى تقاعُدِه. كتبَ لويس أكثرَ من ثلاثين كتابًا، واصلًا بها إلى عددٍ كبير من القُرَّاء، وما تزال أعماله تجدُ ألوفًا جُدُدًا من القُرَّاء سنويًّا. من أهمِّ أعماله "**روايات عالم نارنيا**" *(The Chronicles of Narnia)*، و"**المحبَّات الأربع**" *(The Four Loves)*، و"**المسيحيَّة المجرَّدة**" *(Mere Christianity)*، و"**رسائل خُربُر**" *(The Screwtape Letters)*، و"**أدهشني الفرح**" *(Surprised by Joy)*، و"**قصَّة فقدان**" *(A Grief Observed)* وجميعها متاحةٌ في العربيَّة من أوفير للطِّباعة والنشر.

الطَّلاق العظيم

روايةٌ خالدة لرحلةِ حافلةٍ من الجحيم إلى السماء

الطَّلاق العظيم

رواية خالدة لرحلةِ حافلةٍ من الجحيم إلى السماء

سي. أس. لويس

ترجمة: د.أوسم وصفي

أوفير
ophir

The Great Divorce by CS Lewis © C. S. Lewis Pte Ltd. 1955

www.cslewis.com

Cover design and illustration by Kimberly Glyder.

Arabic Edition © 2019 by **Ophir Printers & Publishers.**
Published under license from the CS Lewis Company Ltd.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

الطَّلاق العظيم
الطبعة العربية الأولى ٢٠١٩م
حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر
ص.ب. ٣٠٦٢، عمَّان ١١١٨١، الأردن
هاتف: ٣٣٨١ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+ ، فاكس: ٣٣٨٥ ٤٦٣ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٩/٥١٤٥
ISBN 978-90-5950-271-0

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم العنوان: الخطَّاط يعقوب إبراهيم

قائمة المحتويات

المقدِّمة ٩
الفصل ١ ..... ١٣
الفصل ٢ ..... ١٩
الفصل ٣ ..... ٣١
الفصل ٤ ..... ٣٧
الفصل ٥ ..... ٤٥
الفصل ٦ ..... ٥٧
الفصل ٧ ..... ٦٣
الفصل ٨ ..... ٦٩
الفصل ٩ ..... ٧٧
الفصل ١٠ ..... ١٠١
الفصل ١١ ..... ١٠٩
الفصل ١٢ ..... ١٢٩
الفصل ١٣ ..... ١٤١
الفصل ١٤ ..... ١٥٥
كلاسيكيَّات سي. أس. لويس ١٥٩

المقدِّمة

كَتبَ بليك[1] كتابًا بعنوان "**زواج السماء بالجحيم**" *(The Marriage of Heaven and Hell)*، وإذا كُنتُ أكتُبُ عن طلاقِهما، فذلك لا يعني أنَّني أعدُّ نفسي النظير المُقابِلُ لتلك العَبقَريَّة العظيمة، ولا يعني حتَّى أنِّي واثقٌ تمامًا بفهمي لِمَا كانَ يقصُدُه. لكن بصورةٍ أو بأخرى، فإنَّ هَناكَ دائمًا مُحاولات مُتَكَرِّرة لإجراء ذلك الزواج. وهذه المُحاولات مبنيَّة على الاعتقاد أنَّ الواقع لا يُقَدِّمُ لَنا بتاتًا خياراتٍ مُطلَقةً على طريقة "إمَّا هذا وإمَّا ذاك" بصورةٍ لا يُمكن تجنُّبها، وأنَّه إذا توافرت لدينا المهارة، وتوافر لدينا الصَّبر، وأيضًا (وقبل كلَّ شيء) إذا توافرَ لدينا الوَقتَ الكافي، يُمكنُنا أن نَجِدَ طَريقَة نَحصُلُ بها على الخيارَينِ مَعًا؛ فكلُّ ما نحتاجُ إليه هو إجراءُ بَعضِ التَعديلاتِ هُنا، والتنقيحِ هُناك، لكَي نَستطيعَ أن نُحَوِّلَ الشرَّ إلى خَير، دُون أن نكون مُطالَبين بأن نرفضَ رَفضًا نهائيًّا وكاملًا أيَّ شيءٍ من الأشياء التي كُنَّا نَودُّ الاحتفاظ بها. إنَّني أعدُّ ذلك الاعتقادَ خطأً كارِثيًّا. لا تستطيع أن تأخذ معك كُلَّ أمتِعَتِك في كلِّ الرحلات، بل يتحتَّم عليك في بعض الرحلات أن تتخلَّى عن يَدِكَ

---

١) وليَم بليك (William Blake): شاعرٌ إنكليزيٌّ ورسَّام عاش ما بين القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر، وهو ينتمي إلى الحركة الرومانسيَّة (المترجم).

اليُمنى أو عينك اليُمنى. إنَّنا لا نعيشُ في عالَمٍ تؤدِّي فيه كُلُّ الطُّرُق في النهاية إلى مكانٍ واحد. ولا تقودنا كُلُّ الطُّرُق، إذا تابعنا المسير فيها بما يكفي، نحو أن نجد أنفُسُنا نقترَبِ بعضنا من بعض ونتقابل في النهاية عند المركز. إنَّما على العكس من ذلك، نَعيشُ في عالَم فيه كُلُّ طريقٍ، بعد أميالٍ قليلة، يَتَفَرَّعُ إلى طريقَين، ثُمَّ سرعانَ ما يَتَفَرَّعُ كُلُّ فرعٍ إلى طَريقَين آخَرين مَرَّةً أُخرى. وعندَ كُلِّ نُقطَةٍ يتفرَّع فيها الطريق إلى طريقَين، عليك أن تَتَّخِذ قرارًا. حتَّى على المُستوى البيولوجيِّ، فإنَّ الحياة ليست مثل نهر، وإنَّما مثل شجرة. فهي لا تَتَحَرَّكُ اقترابًا من الوحدَة، وإنَّما ابتعادًا عَنها، فتَتَباعَدُ المخلوقاتُ كُلَّما تَطَوَّرَت نَحوَ مَزيدٍ من الكَمالِ والإتقان. والخَيرُ، عندما ينضُج، يصيرُ مُختلفًا باطِّرادٍ ليسَ فَقَط عن الشرِّ، بل حتَّى عن غيره من الخير.

لا أظُنُّ أنَّ كُلَّ من يختارون طُرُقًا خاطئة يهلكون؛ لكنَّ إنقاذَهُم لا يتِمُّ **بالمُضيِّ قُدُمًا** وكأنَّ شيئًا لم يحدُث، وإنَّما يحتاجون إلى أن يُوضَعون مرَّة أُخرى على الطريق الصحيح. يُمكنك أن تُصحِّح عمليَّة حسابيَّة، وذلك بالعودة إلى الخلف حتَّى العثور على الخطوة التي حدث فيها الخَطَأ، والعَمل من جديد بدءًا من تلك الخطوة فصاعدًا. يُمكِنُ أن يُبطَل الشرُّ، لكنَّه لا يُمكن أن "يتحَوَّل" إلى خير من تلقاء ذاته. والوقت لا يشفيه. يجب أن تُفَكَّ اللَّعنَةُ، بالتدريج "كَمَن يتلو التعويذة معكوسة لكي يُلغي ما قام به من سحر".[٢] وإلَّا فلن يحدُثُ

٢) هذه العبارة مقتبسة من أحد أشعار جون ملتون (John Milton)، وهو شاعر إنكليزيٌّ من القرن السابع عشر (المترجم).

شيء. ما يزال الأمر يحتاجُ إلى اختيار "إمَّا هذا وإمَّا ذاك". إذا كُنَّا نُصِرُّ على الاحتفاظ بالجحيم (أو حتَّى الأرض) فلَن نرى السماء. وإذا كُنَّا نقبَل السماء فلن نستطيع الاحتفاظ حتَّى بأيِّ تَذكار صغير حَميم نأخُذُهُ مَعَنا من الجحيم. إنَّني أومن يقينًا بأنَّ أيَّ إنسانٍ يصِلُ إلى السماء سيكتشف أنَّ ما كان قد تخلَّى عنه (حتَّى وإن كان قد قَلَعَ إحدى عينيه) لم يُفقَد، وسيجد أنَّ الجَوهَر الطيِّب الذي كان يبحَثُ عَنهُ حَتَّى في أكثَرِ أمانيه فسادًا، على عكس ما يتوقَّع، يَنتَظِرهُ هُناكَ "في الأعالي".

بهذا المفهوم سيستطيع مَن أكملوا الرحلة (وليس غيرهم) أن يقولوا إنَّ الخير هو كلُّ شيء والسماء كانت في كُلِّ مَكان. لكنَّنا، على هذا الجانب من الطريق، يجب ألَّا نحاول أن نتوقَّع تلك الرؤية من الآن. وإذا فعلنا ذلك، فإنَّنا غالبًا ما سوف نعتنق صُورةً مُزيَّفة وكارثيَّة، ونتخيَّل أنَّ كُلَّ شيء على ما يُرام وكُلَّ مَكانٍ هُوَ السَماء دون أن يكونَ ذلك حقيقيًّا.

لكن ماذا عن الأرض؟ أعتقدُ أنَّنا في النهاية سوف نكتشف أنَّ الأرض لم تكُن بتاتًا مكانًا مُمَيَّزًا بذاته. وأظنُّ أنَّ من يَختار الأرضَ بدلًا من السماء، سوف يكتَشُف أنَّ هذه الأرض لم تكُن طوال الوقت سوى منطقةٍ من مناطق الجحيم. أمَّا من يُفضِّل السماء على الأرض، فسوف يكتشفُ أنَّ الأرضَ كانت له دائمًا منطقة من مناطق السماء.

هناك فقط أمران يُمكن أن يُقالا بشأن هذا الكتاب. أوَّلًا، يجب أن أعترف بأنِّي مَدينٌ لكاتبٍ نسيتُ اسمَهُ، كُنتُ قد قرأتُ له منذُ

سنوات مضت في مجلَّة أميركيَّة كثيرة الألوان من النوعيَّة التي يُسَمُّونَها "مُحاولات إسباغ الطبيعة العِلميَّة". لقد كانت سِمَة موضوع السماء غير القابلة للانحناء أو الانكسار من جهتي مُستَوحاة منه، رغم أنَّه استخدم ذلك الخيال لقصدٍ مختلف وأكثر ابتكارًا.

سافر بطَلُهُ إلى **الماضي**، وهُناك وجد، بصورة بدت صحيحةً جدًّا، زخَّات مَطَرٍ يُمكنها أن تخترق جسده مثل الرصاصات، وشطائر لا يُمكن أَن يمتلك أيُّ فَكٍّ القوَّة اللازمة لقَضمِها- وذلك لأنَّ الماضي لا يُمكنُ تغييره أو التأثير فيه. وقد نقلتُ، بقدرٍ أقلَّ من الأصالة ولكن بنوعيَّة مُمَاثلة (كما أتمنَّى)، ذلك المفهوم نفسه إلى الأبديّ. إذا قرأ كاتب تلك القصَّة في أيِّ وقت بواسطة قراءة هذه السطور، فإنَّني أسأله أن يتقبَّل منِّي عظيم شُكري وعرفاني. الشيء الثاني هو هذا: ألتمس من القُرَّاء أن يتذكَّروا أنَّ هذه قصَّة خياليَّة. بالتأكيد لها مَغزًى، كما أرجو، لكن تلك الحالات للإنسان بعد الموت هي محضُ افتراضٍ خياليٍّ، وليست حَتَّى مُحاولات للتخمين أو التَكَهُّن بشأن ما يُمكن أن يكونَ في انتظارنا. إنَّ آخرَ ما أريدُ أن أُثيرَهُ في القارئ هو الفُضول بشأن حقائِقِ الحَياةِ أو تَفاصيلها بعد الموت.

سي. أس. لويس
نيسان/أبريل، ١٩٤٥م

١

بَدا لي أنَّني أقِفُ في صِفٍّ طويلٍ مُزدحِم على جانب شارعٍ كئيبٍ قاحِل. كان المساء قد بدأ يُخَيِّم والمَطَرُ يتساقَط. مَضَت ساعات عِدَّة بينما كنتُ أتَجَوَّلُ على غير هُدى في شوارع كئيبة مُتماثِلة. المَطَرُ لا يَتَوَقَّف وكَذا غَسَقُ الغروب الذي لا يُشرِقُ ولا يُظلِمُ، حتَّى يبدو الوقتُ كَأَنَّهُ قد تَوَقَّف عند تلك اللحظة الموحِشة التي أضاءَت فيها محالُّ قليلة نورَ نوافِذها، في حين لم يَصِر الجوُّ بعدُ ظلامًا بما يكفي لكي يسطعَ ذلك النورُ ويبدو بهيجًا. ومثلما لم يتقدَّم المساء بتاتًا نحو الليل، فإنَّ مسيري أيضًا لم يقُدني نحو أماكنَ أفضل من تلك البلدة. ومهما ابتَعَدتُ فإنَّني لا أجدُ سوى تلك المساكِنِ البائسة وأكشاك التَّبغ الصغيرة واللوحات الإعلانيَّة التي تَتَدَلَّى منها المُلصقات المُتهالكة، والمخازن التي بلا نوافذ، ومحطَّات قطارات البضائع بلا قطارات، والمكتبات من النوع الذي يبيع "**أعمال أرسطو**". لَم ألتَقِ أحدًا. وباستثناء ذلك الجمع الصغير الواقف عند موقف الحافلة، بدت البلدة كلُّها فارغة. لعلَّ ذلك ما جَعَلني ألتحق بذلِكَ الصفِّ من الناس.

وسرعان ما صادَفَتني ضربَةُ حظٍّ؛ فما إنِ اتَّخَذتُ مكاني في الصَّفّ، حتَّى وجدتُ امرأةً صغيرةَ الحجم لاذِعَةَ المِزاج واقفة أمامي،

تنفجر في وجه رجُلٍ بدا أنَّه برفقتها قائلة: "حَسنًا إذًا. لن أذهب بتاتًا. انتهى الأمر". وتركت الصفَّ ومَضت. أجابها الرجُل بصوتٍ تغلَّب عليه عزَّة النفس: "لا تتصوَّري أنِّي أهتمُّ بالذهاب أصلًا. لقد كنتُ فقط أُحاول إرضاءك **أنت**، لأجل الحفاظ على السلام. أمَّا مشاعري فبالتأكيد ليست لها أهمِّيَّةٌ لدَيك. إنَّني أفهم ذلك جيِّدًا". ولكي يجعل سلوكَهُ مُتوافقًا مع كلامه، مضى هو أيضًا. قُلتُ لنفسي: "هيَّا، ها قَد تَقَدَّمتُ في الصَّفِّ مكانَين". جاء دوري بعد رَجُلٍ قصيرٍ جدًّا مُتَجَهِّم الوَجه، رماني بنظرة تحمل امتعاضًا شديدًا، وعَلَّق للرَّجُل الواقف بعده، بصوتٍ أعلى ممَّا يجب، قائلًا: "مثل هذه الأمور تجعل المرءَ يتردَّد في الذهاب من الأساس". دَمدَم الرجل الآخر الضخم المُكتَنِز قائلًا: "أيَّ شيءٍ تقصِد؟". أجاب: "الرجل القصير...حسنًا، في واقع الأمر، إنَّني لستُ مُعتادًا هذا النوع من المُجتَمَعات". قال الرجل الضخم: "هَه!"، ثُمَّ أضاف وهو يرمقني بنظراته: "لا تقبلْ أيَّة وقاحة من شخص **كهذا**، يا سيِّدي. أنت لا تخافَه، أليس كذلك؟". وعندما رأى أنَّني لم أُبدِ أيَّة حركة، استدار فجأة نحو الرجل القصير قائلًا: "لسنا جديرين بمقامك الرفيع، أليس كذلك؟ مثلَ شفَتِك". وفي اللحظة التالية كان قد سَدَّدَ لَكمَةً في وَجنَة الرجل القصير أردَتهُ طريحًا أسفل الرصيف، ثُمَّ رفع الرجل الضخم صوتَهُ قائلًا للجميع: "اتركوه يرقد هكذا، اتركوه. أنا رجُلٌ عاديّ. هذا أنا. لكنَّني يجب أن أحصُل على حقوقي مثل أيِّ شخص آخر، أمفهوم هذا؟". وعندما فَقَد الرجل القصير رغبته في البقاء في

الصفِّ، وبدأ يعرُجُ مُبتعدًا عن المشهد، اقتربتُ خلف الرجل الضخم بحذر، مُهَنِّئًا نفسي بالتَقَدُّم خطوةً أُخرى في الصَّفّ. بعد لحظاتٍ، غادر شابَّان متأبِّطَين ذراعَي بعضهما بعضًا. كان واحدٌ منهما نحيفًا يرتدي سروالًا ضيِّقًا وكانا يُقهقهان بنبرةٍ حادَّة حتَّى لم أستطِع أن أتبيَّن إذا ما كانا شابَّين، أم شابَّتين، أم شابًّا وفتاة، أم فتاتَين. لم أدرِ. لكن كان من الواضح أن كلًّا منهما فَضَّلَ صُحبة الآخر على مَكانٍ في الحافِلة. ثُمَّ سَمعتُ صوتًا نسائيًّا من نَحو أربعة أماكن أمامي يقول بنبرة مُنتَحِبة: "لن نستطيع كُلُّنا ركوب الحافلة". فقال آخر: "هل تقايضيني مكانَك، يا سيِّدتي، مقابل خمسة شلنات؟". وسمِعتُ رنين العُملات، ثُمَّ صرخة من ذلك الصوت النسائيِّ ممزوجة بهدير الضحك من باقي الجَمع. قفزتْ السيِّدة المخدوعة من مكانها وهُرِعت نحو الرجل الذي غشَّها، أمَّا الباقون فقد أخذوا مكانها وقذفوا بها خارجًا...وهكذا بدأ الصَّفُّ لسببٍ أو لآخر بالانكماشِ إلى طولٍ معقول قبلَ ظهور الحافلة بوقتٍ طويل.

كانت مَركبةً رائعة ذات أنوارٍ ذهبيَّةٍ مُتَوَهِّجَة ولونٍ لافِتٍ للنَّظر. السائق نفسه بدا ملآنًا بالنور وكان يقود الحافلة بيدٍ واحدة، أمَّا يده الأُخرى فكان يشيح بها أمام وجهه كما لو كان يُبعد عن وَجهه رذاذ المَطَر. وعندما صار في مَجال الرؤية، تصاعَدت من الصَّفِّ همهمات مُتذمِّرة: "يبدو **هذا** مُستمتعًا بوقته وهو يَترُكنا هَكَذا مُنتظِرين، هَه؟ اللعنة...يبدو مسرورًا بنفسه على نحوٍ مُستفزّ. رَبَّاه، لماذا لا يتصرَّف هذا الرجُل بطريقة **طبيعيَّة**؟ هل يرى نفسَهُ أفضل من

أن ينظُر إلينا؟ من يظُنُّ نفسَهُ؟ كلُّ ذلك الطلاء وذلك اللون القرمزيِّ اللامِع. أنا أعدُّ ذلك تبذيرًا شرِّيرًا. لماذا لا يُنفقون بعضًا من هذا المال على تحسين مبنى موقف الحافلة هنا؟ يا إلهي! كَم أوَدُّ أن ألكُمَه في وجهه". أمَّا أنا فلم أرَ شيئًا في مُحَيَّاه يُمكن أن يُعلِّل كُلَّ هَذا، لكنْ بَدَت عليه أماراتُ القوَّة والتصميم على القيامِ بعَمَلِهِ على أكمل وجه.

تزاحم زملائي الركَّاب كالدجاجات لكي يستقلُّوا الحافلة مع أنَّه كان هناك عددٌ كافٍ من الأماكن. انتَظَرتُ حتَّى رَكِبَ الجَميع وكنتُ آخر مَن يركب، لأجِدَ الحافِلَةَ مُمتلِئَةً إلى نِصفِها فَقَط، فاختَرتُ مقعدًا في الخلف، مبتعدًا بمسافة كبيرة عن الباقين. لكنَّ شابًّا ذا شعرٍ أشعَث جَاء في الحال وجَلَس بجانبي. وما إنْ جلس، حتَّى انطلقت الحافلة.

قال الشابّ: "خِلتُك لا تُمانع أن أجلس بجانبك، لأنِّي خَمَّنتُ أنَّك تشعر مثلما أشعُر حيال رفقائنا الحالِيِّين هؤلاء. لماذا بحقِّ السماء يُصِرُّون على المجيء؟ لا أستطيع أن أتَخَيَّل. لن يروقَهُم الأمر هُناك. في الحقيقة، سيكونون أكثر راحة إذا ظلُّوا في بيوتهم. لكنَّ الأمر يختلف عندنا، أنا وأنت".

سألته: "هل **يُحبُّون** هذا المكان؟"

أجابني قائلًا: "مثلما يُمكن أن يُحبُّوا أيَّ شَيء. لدَيهِم سينمات ومَحالُّ تبيع السمك والبطاطا وإعلانات تجاريَّة وكُلُّ ما يريدونه. أمَّا الفقر المُروِّع لأيِّ شكلٍ من أشكال الحياة الثقافيَّة فلا يُقلق بال

هؤلاء بتاتًا. لقد لاحظتُ بمجرَّد مجيئي إلى هُنا أنَّ هُناك خطأً ما. كان يجب أن آخذ الحافلة الأولى وأُغادِر على الفور، لكنَّني تَسَكَّعتُ قليلًا مُحاوِلًا إيقاظ بعض الناس هُنا. وجدتُ بعض الأشخاص ممَّن أعرفهم من قبل، وحاولتُ أن أصنع دائرة من العلاقات، لكن يبدو أنَّ وعيهم قد هبط ليُماثل البيئة المُحيطة بهم. حتَّى قبل أن نأتي، كانت لي بعض الشكوك بشأن رجلٍ مثل سيريل بليلو. لقد كنتُ دائمًا أظنُّه يتظاهَر. لكنَّه على أيِّ حال كان ذكيًّا: كان يُمكن للمرء أن يحصل منه على نقد يستحقُّ الاستماع، حتَّى وإن كان هو نفسه فاشلًا في الإبداع. لكنَّه الآن يبدو وكأنَّه قد فقد كلَّ شيء فيما سوى خيلائه واعتداده بنفسه. آخر مرَّة حاولت أن أقرأ له بعضًا من كتاباتي...انتظر لحظة، أريدك أن تُلقي نظرة عليها".

عندما أدركتُ فَزِعًا أن ما يَهُمُّ بإخراجه من جيبه كان رزمة سميكة من الورق المَطبوع، تَمتمتُ قائلًا شيئًا مثل إنَّني نسيتُ نظَّارتي وهَتَفت: "مرحى! لقد أقلعنا".

كان هذا صحيحًا. لقد أصبحتْ سقوف البلدة المُبتلَّة تحتنا بمئات الأقدام وقد غطَّى المطرُ والضبابُ نِصفَها، بينما ترامَت على مساحة كبيرة لا تستطيع العينُ الوصول إلى آخِرِها.